مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 9 العدد 1 / جويلية 2023
ص ص 55-63

أثر السّياق في تعاور المفردات في التّعبير القرآني -نماذج من دراسة السّامرّائي البيانيّة-

The Effect of Context in Words Substitution of Qur'anic Expression-Samples from the Rhetorical Study by Al Samarrai-

نسيم عصمان
المركز الجامعيّ عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة (الجزائر)
nassimosmane8@gmail.com

الاستلام: 2023/03/06 القبول:2023/05/05 النشر: 2023/07/31

ملخص:

جاءت هذه الدّراسة لتبحث عن قضيّة من قضايا التّفسير البياني للقرآن الكريم عند الدكتور فاضل السّامرائي، وهي تعاور الألفاظ في التّعبير القرآني؛ إذ أنّنا نجد العديد من الآيات الكريمة تتشابه إلى حدّ كبير في موضوعها وألفاظها خصوصا الآيات التي تحكي لنا قصص السّابقين، ثمّ يأتيك اختلاف في كلمة أو كلمتين، الأمر الذي يلفت النظر ويجعل الباحث متشوّقا إلى معرفة سرّ هذا التّعاور، وقد كشف البحث أنّ السّياق له دور كبير في تعاور هذه الكلمات في النّظم القرآني.

الكلمات المفتاحية: السّياق، تعاور المفردات، التعبير القرآني، القصص القرآني، فاضل السّامرائي.

Abstract:

This study came to look for one of the rhetorical interpretation issues in Qur'an by Doctor Fadel Al-Samarrai which is called substituting words in the Qur'anic expression. We deal with a lot of Qur'anic verses that are very similar in their subjects and words especially verses that tell us stories of the previous ones. Then, a difference comes to you in a word or two words. This thing draws attention and makes the researcher excited to know the secret of this substitution. The study revealed that the context has a big role in substituting these words in the Qur'anic stories.

Keywords. context – substituting words – Qur'anic expression – Qur'anic stories – Fadel Al-Samarrai

مقدمة:

إنّ الحديث عن تعاور الكلمات في السّياق القرآني يذكّرنا بقضيّة مهمّة، تعدّ من كبريات المسائل اللّغوية؛ وأعني بهذا الكلام الإشارة إلى قضيّة التّرادف، والجدل العريض الذي دار بين أهل اللّغة: هل يوجد ترادف في اللّغة أو لا؟ ورجّح السّامرائي أنّه لا ترادف في اللّغة، إلّا إذا كان ذلك من لهجتين متباينتين فممكن كـ(سكّين) و(مدية) مثلا، وكلّ ما في الأمر عند هؤلاء أنّ هناك تقاربا دلاليا، لا تطابقا تامّا.

وإذا كان لا ترادف في اللّغة، فإنّه لا ترادف في القرآن من باب أولى؛ لأنّ نظم القرآن الكريم

أعلى شـــأنا، وأرفع قـدرا في اختيـار الكلمـات فيختار الكلمة بحسـب السّـياق الذي ترد فيه فتؤدّي وظيفتها في سـياقها مع سـابقتها ولاحقتها ولقد سـئل السّـامرائي مرّات عدّة في محاضـراته (لمسـات بيانيـة) عن التّرادف في القرآن، هـل يوجد أو لا؟ فأجاب بمثل ما أجاب في اللّغة؛ أي أنّه لا يوجد ترادف، وأنّ اختلاف المبنى لابدّ أن يصـحبه اختلاف في المعنى، لكنّه زاد تفصـيلا آخر بالنّسـبة للقرآن الكريم، فقال: "لا يوجد ترادف-في اعتقـادي-في القرآن الكريم حتى وإن كـان ذلـك بين قـراءة وأخرى، فـإنّـه لابـدّ أن يسـتعملها اسـتعمالا خاصّـا، ويعطيها دلالتها في السّـــياق الـتي تـرد فـيـه" (السّـــامـرائـي، 2009/08/14).

وبحثنا هنا منصـبٌّ على قضـيّة واحدةٍ وهي تعـاورُ المفردات في التّعبير القرآني، فتجـده يسـتعملُ مفردةً في موضـع، ويسـتعمل غيرها في موطن آخر شـبيه به، بل في القصّـة الواحدة قد يسـتعمل مفردة في موضـع، ويسـتعملُ غيرها في موضـع آخر، مع أنّ القصـة واحدة، والموقف واحد وذلك نحو قوله تعالى: (وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ)البقرة: 60، وقوله: (وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ) الأعراف 160، فنلاحظ أنّه قال في البقرة: (انفجرت)، وفي الأعراف: (انبجسـت)، والانفجـار بـالمـاء أغزر من الانبجـاس، فخـالف بين المفردتين مع أنّ القصّة واحدة، والموضوع واحد ونحو ذلك من الأمثلة، وفيما يلي نماذج من دراسة السّامرائي البيانية لاستعمال الكلمات والمفردات في التّعبير القرآني، وكيف تتغيّر دلالتها من سياق إلى آخر:

- ومن ذلـك المثـال السّـــابق قـال تعـالى:(وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ)البقرة: 60، وقوله تعالى: (فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ) الأعراف160، فقد تقول: لماذا قال في البقرة: (انفجرت)، وفي الأعراف: (انبجسـت) مع أنّ القصة واحدة؟ وما حقيقة الأمر هل انفجرت العيون أم انبجست؟(السامرائي،2002، ص16).

جاء في المفردات عند الرّاغب: "يقال بَجَس المـاءُ وانبجس انفجر، لكن الانبجـاس أكثر مـا يقـال فيمـا يخرج من شـيء ضـيّق، والانفجـار يسـتعمل فيه، وفيما يخرج من شـيء واسـع" (الراغب الأصـفهاني،2009، ص108)، وإذا كان الانفجار غير الانبجاس، وأنّ الأوّل أكثر وأغزر من الثّاني، فما سـرّ هذا التّعاور بين سـياق الآيات؟ وقبـل ذلـك إذا كـان الانبجـاس غير الانفجـار والقصّة واحدة فما الذي وقع؟

والجواب "أنّ كلا الأمرين حصـل ووقع، فقد انفجرت أوّلا بـالمـاء الكثير- كمـا قيـل – ثمّ قـلّ المـاءُ بمعـاصـيهم فـأخـذ ينبجس، فـذكر حـالـة الانفجـار في موطن، وحـالـة الانبجـاس في موطن آخـر" (السـامـرائي،2009، ص112)، يـقـول السّـامرائي مبينا عن ذلك: "والجواب كلا الأمرين حصـل فإنّه على ما يذكر أنّه أوّل ما انفجر الماء انفجر بالماء الغزير، ثمّ قلّ بعد ذلك بسـبب عصـيانهم فأخذ ينبجس، فذكر حالة في سـياق التّكريم وحـالـة أخرى في سـيـاق الذّمّ، وكلاهمـا صحيح، إلّا أنّه اختار كلّ تعبير بحسـب السّـياق الـذي ورد فيـه، وهـو مـا تقتضـيـه البلاغـة"

(السامرائي،2002،ص16)، وإليك الفرق بين المقامين:

قال تعالى: (يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ) البقرة40، وقال تعالى: (وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ)البقرة49، وقوله: (وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ)البقرة 57، والآيات في ذلك كثيرات.

فمقام التّكريم واضح في آيات سورة البقرة؛ فهو في تعداد نِعم الله على بني إسرائيل، ولذلك ناسب أن يأتي معه بالانفجار الذي هو أكبر من الانبجاس.

أمّا آية الأعراف فقد افتتحت بتوبيخهم وهو قوله تعالى: (وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ) الأعراف 138، إلى أن قال: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ) الأعراف 152، وهي واضحةٌ-كما ترى-في مقام ذمّ بني إسرائيل على عبادتهم العجل، ولذلك اقتضت البلاغة في هذا المقام التّعبير بالانبجاس بدل الانفجار تناسبًا مع السّياق. (السامرائي،2009، 320).

إذن فالأمران واقعان، وكلاهما حقيقة، غير أنّه ذكر حالة كلّ منهما تبعا لما يقتضيه السّياق والمقام؛ ففي مقام المدح استعمل كلمة:(انفجرت)، وفي مقام الذّمّ استعمل كلمة:(انبجست) فأتت كلّ صيغة مناسبة للسّياق الذي وردت فيه، ولو غايرنا بينهما-في غير القرآن- فاستعملنا الانفجار مكان الانبجاس لكان خلاف الأولى وخلاف ما يقتضيه البلاغة والمقام.

هذا ولنتأمّل مناسبتين أخريين –أشار إليهما السّامرّائي- في نظم الآية الكريمة علاوة على ما سبق بيانه (السامرائي،2006، ص114).

الأولى: تأمّل المناسبة في التّعبير؛ كيف أعطى الأعظم للأعظم، والأصغر للأصغر، فموسى عليه السّلام -وهو الأعظم- هو الذي دعا في سياق آيات البقرة، فناسب هناك أن يجيبه بالانفجار الذي هو أعظم من الانبجاس، أمّا في الأعراف فإنّ الدّاعي هم بنو إسرائيل، وهم أقلّ شأنا من نبيّ الله -عليه السّلام- بلا شكّ، ولذلك ناسب أن يجيبهم بالانبجاس الذي هو أقلّ.، وكذلك المناسبة الثّانية بين القول والانفجار، والوحي والانبجاس، فإنّ القول الصّريح من الله أكمل وأقوى من الوحي، فناسب ذكر الانفجار في سورة البقرة، والانبجاس في سورة الأعراف.

قلت: ثمّ إنّه من المشاهد كثيرا أنّ العيون والآبار لا تبقى على حالة واحدة، فقد يظهر الماء بادئ الأمر كثيرا ثم يقلّ بمرور الزّمن، وقد يكون العكس، فلا غرابة أن يذكر كلّ حالة في مكانها اللّائق بها، فإنّ كلا الأمرين واقع، وكلاهما صحيح.

هذا ما قرّره السّامرائي في سرّ هذا التّعاور أنّ الماء انفجر أولا، ثمّ انبجس وقلّ بسبب عصيانهم، على أنّ بعض أهل العلم يعكس القضية تماما ويرى أنّ الانبجاس هو الأول والانفجار هو الأخير؛ أي أنّ الماء ابتدأ بالخروج قليلا، ثمّ صار كثيرا، وحجّتهم في هذا سبب

النزول؛ ذاك أنّ سورة الأعراف التي ذكر فيها الانبجاس مكّية، وسورة البقرة التي ذكر فيها الانفجار مدنيّة، فهي متأخّرة في النزول،(ابن كثير،2013، ج1، ص.165)، وسواء هذا الرأي أم الذي قبله، أم الآراء والاستنباطات التي سيأتي، فالله أعلم بأسرار تنزيله.

-ومن استعمال المفردة في الموطنين المتشابهين: قوله تعالى في سورة البقرة: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، وقال في النّساء: (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا)، وقال في الأعراف: (وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، فاستعمل (الطّور) في آيتي البقرة والنّساء، واستعمل (الجبل) في آية الأعراف (السّامرائي،2006 ص111).

أوّلا: ينبغي أن نعلم أنّ أهلَ اللّغة يفرقون بين الجبل والطّور فيقولون –كما جاء في اللّسان-: الجبلُ اسم لما طال وعظُم من أوتاد الأرض، ولا يشترط ذلك في الطّور، فالجبل أعظم من الطّور (ابن منظور، (دت)، ص537)، وقد ذكر ابن كثير في تفسيره أنّ الطّور هو اسم للجبل الذي فيه أشجار، فإذا لم يكن فيه شجر فلا يُسمّى طورا (ابن كثير،2013،ج4،ص،348).

بعد هذه التّوطئة اليسيرة نعودُ للآية الكريمة، لماذا عبّر في سورة الأعراف بالجبل، وفي سورتي البقرة والنّساء بالطّور؟

والجواب أنّ السّياق اقتضى ذلك، "فإنّه أفاض في ذكر صفات بني إسرائيل الذّميمة، ومعاصيهم القبيحة في سورة الأعراف ما لم يُفضْه في سورتي البقرة والنّساء، ولذلك ناسب أن يأتي بالجبل هناك، ليكون أبلغ في الزّجر والتّهديد؛ لأنّ الجبل أعظم من الطّور" (السامرائي،2006 ص112)، واستشهد السّامرائي لصحّة ما ذهب إليه باستعمال القرآن الكريم للفظة الجبل فإنّه "لم يستعمل الجبال إلّا في مقام الشدّة والهول، وبيان القدرة العظيمة، وذلك نحو قوله تعالى في قصّة موسى عليه السّلام: (وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۖ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)الأعراف 143، فانظر كيف اختار لفظ الجبل على الطّور للدّلالة على عظم التجلّي وأثره" (السامرائي،2006،ص111)، ولذلك نجد القرآن يستعمل لفظ الجبال دون الأطوار في مقام التّهويل والتّعظيم، والدّلالة على القدرة التي لا تحدّ، فقال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا) النّبأ 6-7، وقال في القيامة: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ) ء التّكوير3، وقوله: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) ء الكهف47 ففيهما من الدّلالة على العظم ما ليس في اسم الطّور (السامرائي،2006، ص111).

هذا وعلاوةً على مناسبة السّياق، فهناك مناسبة أخرى في التّعبير ذكرها السّامرائي وهي: "في اختيار لفظة (نتقنا) مع الجبل، و(رفعنا) مع الطّور وذلك لما في النّتق من التّهديد والتّخويف؛ فإنّ النّتق أشدّ وأقوى من الرّفع؛ وذلك أنّ معنى النّتق هو الجذب والزّعزعة والاقتلاع، ومعناه

أيضا هو أن يُقلع الشّيء فيدفعه من مكانه ليرمي به هذا هو الأصل، في حين أنّ الرّفع ضدّ الوضع" (السامرائي،2006،ص112).

فأنت ترى بعد هذا الذي ذكره السّامرّائي أنّ في نتق الجبل ورفعه من الغرابة والقوّة والإخافة والتّهديد ما ليس في رفع الطّور، فأن يُزعزَع الجبلُ، ويُقلع من مكانه، ويُرفع ليرمي به كأنّ هناك قاذفا يقذف به عليهم، أمرٌ مرعبٌ ومخيف، وفيه من القوّة والشدّة ما ليس في رفعه، ألا ترى لو أنّ شخصًا رفع حجارة من الأرض، وتهيّأ لضرب شخص ما، ألم يكن ذلك أكثر تهديدا وإخافةً من مجرّد رفع الحجارة من الأرض؟

فنخلص إلى أنّ لفظة (نتقنا) ناسبت (الجبل) من جهة، وناسبت السّياق من جهة أخرى، وهما معا ناسبا السّياق العامّ في سورة الأعراف الذي يتحدّث عن جرائم بني إسرائيل الكبيرة، لما يحملان من قوّة وإخافة وشدّة، وهذا أبلغ في تهديد بني إسرائيل وزجرهم، بخلاف لفظتي الرّفع والطّور-كما رأينا-. فاقتضى أن يكون كلّ تعبير في مكانه.

-ومن الأمثلة أيضا قوله تعالى في زكريا عليه السلام في سورة آل عمران: (قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ)، وقوله في سورة مريم: قال تعالى: (قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠) فقال في آل عمران ثلاثة أيام، وقال في مريم: ثلاث ليال، واليوم يقابل اللّيل، قال تعالى: (سخّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسُومًا) سورة الحاقة07، ومقداره من طلوع الفجر إلى غروب الشمس (السامرائي، 2006، ص114-115)، ولذلك قال عليه السلام:"من صلى في يوم وليلة ثنتي عشرة ركعة تطوعا غير فريضة بنى الله له بيتا في الجنة"؛ لأنّ بعض هذه النوافل (الرواتب) يكون في الليل كراتبة المغرب والعشاء وبعضها يكون في النهار(اليوم) كراتبة الفجر ورواتب الظهر الستة، ولذلك جمع –عليه السّلام- بين اليوم والليل، هذا وقد يراد باليوم الوقت مطلقا، ومنه الحديث تلك أيام الهرج؛ أي وقته،(السامرائي، 2006، ص115) واستفدنا من ذكر الليالي في سورة مريم، والأيام في سورة آل عمران أنّ زكريّا عليه السلام لا يتمكّن من أن يكلّم الناس ثلاثة أيام ولياليهنّ من دون علّة مرض، في حين أنّه يستطيع أن يذكر الله ويسبّحه في نفسه، والسؤال المطروح لماذا عبر في آل عمران بالأيام وفي سورة مريم بالليالي مع أنّ القصّة واحدة؟ والجواب عن ذلك يتضح من سياق الآيات في كلّ من الموضعين:

قال تعالى في سورة آل عمران قال تعالى: (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١).

وقال تعالى في سورة مريم: (كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ

وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا) فبالتأمّل في هذه الآيات الكريمات نجد أنّ اختيار اللّيل في مريم يقتضية سياق القصّة من وجوه، منها: أنّه لمّا نادى زكريّا ربّه نداء خفيا، وذكر شيحوخته وضعفه عند دعائه، فإنّ هذا أشبه شيء بالليل وما فيه من سبات وسكون وقلّة حركة، فاقتضى التعبير القرآني ذكر الليل للمناسبة، ولم يذكر مثل هذه الأمور في سورة آل عمران، "فلم يذكر مع الأيّام إلّا قوله تعالى: (وقَدْ بلغَني الكِبَرُ)" (السامرائي، 2006، ص117)، فما ذكره في سورة مريم إذن أنسب مع ذكر الليل.

ومن المناسبات أيضا التي ذكرها السّامرائي في سرّ هذا التعاور، أنّه "لما ذكر الليل في آية مريم (ثلاث ليال) ناسب ذلك تقديم البكرة على العشيّ، لأنّ البكرة أول النهار، وهي من الفجر إلى طلوع الشمس أو إلى الضحى، والعشي من بعد الزوال إلى غروب الشمس؛ أي من وقت صلاة الظهر إلى المغرب، ولا شكّ أنّه بعد اللّيل تأتي البكرة ثم العشي، فأراد أن لا يذهب من الوقت شيء في غير الطاعة والتسبيح، فقال: (بكرة وعشيا)، ولو قال: (عشيا وبكرة) لكانت البكرة الأولى مضت من دون تسبيح ، فكان تقديم البكرة هاهنا آتم وأولى"، (السّامرائي، 2006، ص120)، ولما ذكر اليوم في آل عمران(ثلاثة أيام) كان تقديم العشيّ أولى، "لأنّ بكرة ذلك اليوم قد مضت وبقي العشي، فلابدّ من ابتداره للتسبيح والذكر فيه، فلو قدّم البكرة أيضا لذهب عشيّ اليوم الأول من دون تسبيح وذكر (السّامرائي، 2006، ص120)، فكان ما ذكر هو الأولى والأدلّ على الشكر.

إلى غير ذلك مما ذكره السامرائي.

هذا ويمكن أن نرد هذا الاختلاف في التّعبير إلى السياق العام؛ أعني زمن نزول كلا السورتين ففي سورة مريم عبّر بـ(ثلاث ليال)، ذلك أنّ في أيام العرب وحسابهم اللّيل يسبق النهار، فنحن في شهر رمضان المعظّم، فعند أول ليلة منه نستطلع الهلال، فإن ثبت الهلال صلّينا التراويح لأنّها أول ليلة من رمضان، ونتبعها بصوم اليوم الذي بعدها، وهكذا في هلال شوال حيث يكون في آخر يوم من رمضان، ونستقبل أوّل ليلة من شوال التي هي ليلة العيد، فاللّيالي سابقة على الأيام، وهنا سورة مريم نزلت في مكّة، وسورة آل عمران نزلت لاحقا في المدينة، فعبّر في سورة مريم باللّيالي السابقة في الزمن مع السورة السّابقة في النزول، وعبّر في سورةآل عمران اللاحقة في النزول بالأيّام وهي لاحقة في الزمن فجعل سبحانه السّابق للسابق، واللّاحق للاحق، فكلّ لفظة وقعت موقعها طبقا لسياقها، وهذا من عظمة بلاغة القرآن الكريم، والله أعلم.

- ومن اختلاف المفردة في الموطنين المتشابهين قوله تعالى: (وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ) البقرة125، وقوله: (وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ)الحجّ26، فنلاحظ أنّه قال في سورة البقرة: (والعاكفين)، وقال في سورة الحجّ: و(القائمين)، والعاكفون هم أهل البلد الحرام المقيمون، وقيل: هم المجاورون له من الغرباء، وهم الذين عكفوا عنده؛ أي أقاموا لا يبرحون وقيل هم المعتكفون فيه (أبو

حـــــيــــــان،1993، ج1 ص553) و(الشوكاني،2007،ج1 ص121)، والقائمون هم "المصلّون كما يقول المفسّرون فعلى هذا يكون القائمون هم الرّكّع السّجود، إلّا أنّه ذكر أهمّ أركان الصّلاة وهي: القيام والرّكوع والسّجود".(السامرائي،2006، ص122)، وهذا من عطف الخاصّ على العامّ، وقد تقرّر في فنّ المعاني أنّ عطف الخاصّ على العامّ، أو العكس إذا كان الخاصّ ينماز عن سائر أفراد العامّ بصفات حسنة، أو قبيحة، من الإطناب المحمود تنزيلا للتّغاير في الصّفات منزلة التّغاير في الذّوات،-وهو كذلك هنا-، فإنّ السّجود هو أعظم أركان الصّلاة، كما ثبتت بذلك السّنّة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم: (أقربُ مَا يكونُ العبدُ من ربّه وهو سَاجِدٌ) (مسلم،2010، ص133)، جاء في البحر المحيط: "والقائمون هم المصلّون، ذكر من أركانها أعظمها؛ وهو القيام والرّكوع والسّجود" (أبو حيان،ج6، ص337)، وجاء في روح المعاني للإمام الألوسي: "ولعلّ التّعبير عن الصّلاة بأركانها من القيام، والرّكوع، والسّجود للدّلالة على أنّ كلّ واحد منها مستقلّ باقتضاء التّطهير، أو التّبرئة على ما قيل". (الألوسي، (دت) ص143.)

وذهب السّامرّائي إلى أنّ معنى القيام أوسع ممّا ذكر المفسّرون، وأنّه لا يختصّ بالقيام بالصّلاة، بل هو عامّ في كلّ أمور الدّين، قال ما نصّه: "والذي يظهر لي -والله أعلم- أنّ القيام لا يختصّ بالقيام في الصّلاة، وإنّما هو يشمل القيام بأمر الدّين عموما والاستمساك به، والمحافظة عليه، فالقائمون هم المستمسكون بدين الله الثّابتون عليه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾" (السامرائي، ص122) ،آل عمران113، جاء في لسان العرب: "معنى القيام العزم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ الجنّ 19؛ أي لمّا عزم، وقوله: ﴿ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾ الكهف14 أي عزموا فقالوا، والقائم بالدّين المستمسك به، الثابت عليه، وعليه قوله تعالى: ﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴾ آل عمران 113؛ أي مواظبة على الدّين ثابتة" (ابن منظور، دت، ص 3781)، وكذلك قولنا: فلانٌ قائم بكذا، إذا كانَ حافظًا له متمسّكا به.

وأمّا معنى (العكوف) هو الإقامة ولزوم المكان، جاء في لسان العرب: "عكفَ على الشّيء: أقبل عليه مواظبًا لا يصرف وجهه عنه، وقيل أقام، ومنه قوله تعالى: (يَعكفُون على أصنامٍ لهم) أي يقيمون، ومنه قوله تعالى: (ظَلْتَ عليه عَاكفًا) أي مقيما، وعكفَ عُكوفا لزم المكان، والعكوف الإقامة في المسجد، قال تعالى: (وأنتُم عاكفونَ في المسَاجِدِ) قال المفسّرون وغيرهم من أهل اللّغة: عاكفون: مقيمون في المساجد لا يخرجون منها إلّا لحاجة؛ يصلّى فيه، ويقرأ القرآن، ويقال لمن لزم المسجد وأقام على العبادة فيه عاكف ومعتكف"(ابن منظور، ص3058).

أمّا سببُ ذكر (العاكفين) في سورة البقرة (والقائمين) في سورة الحجّ، فذلك أمر يقتضيه السّياق، يقول السّامرائي: "والعاكفون في الآية هم أهل البلد الحرام المقيمون، وقيل هم

المجاورون له من الغرباء، وقد جاءت الآية في سياق ذكر أهل البلد الحرام وسكّانه، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ) سورة البقرة126 (السامرائي،2006، ص123)، ثمّ ذكر بعدها ذريّة إبراهيم وإسماعيل فقال: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ) البقرة: 127، وسكّان البلد الحرام هم من ذريّة إسماعيل بن إبراهيم -كما هو معلوم-، ومن هؤلاء السكّان المقيمين في البلد الحرام بُعث النّبيّ الأمّيّ الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل: (رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) البقرة: 129، فمن أجل ذلك ناسب السّياق ذكر العاكفين في سورة البقرة؛ وهم أهل البلد الحرام المقيمون أو المجاورون له، وعموم من لزم المسجد الحرام، أمّا في آية الحجّ فقد ذكر (القائمين) ولم يذكر (العاكفين) لسببين :

-الأول أنّه "قال قبل هذه الآية: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) الحج:25 ، فجعل العاكفَ فيه وغيرَه سواء فليس من المناسب أن يذكر العاكفين، فقال: (والقائمين)، والقائمون قد يكونون من العاكفين وغيرهم"(السامرائي، ص124)؛ لأنّ لفظ القيام عامّ يشمل القيام بشعائر الدّين عمومًا، ومن ذلك: الاعتكاف.

-هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أنّه ذكر بعدها فريضة الحجّ، والحجّاج يأتون إلى البيت من كل فجّ عميق، ولم يذكر أهل البلد الحرام وسكّانه، فقال: (وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) الحجّ27. (السامرائي،2006، ص124)، والأنسب لحال هؤلاء هو لفظ القيام الذي يعني القيام بأمر الدّين والاستمساك به-كما سبق بيان ذلك- وليس العكوف الذي يعني الملازمة والإقامة؛ لأنّه من المعلوم أنّ جلّ هؤلاء المذكورين إنّما جاؤوا للقيام بمناسك الحجّ، ثمّ يعودون إلى أهلهم بعد قضاء فريضة الحجّ، ولذلك فلا يناسب ذلك ذكر (العكوف)، وإنّما يناسبه القيام ويدخل في ذلك القيام بالصّلاة، وبمناسك الحجّ من الطّواف، والسّعي، والوقوف بعرفة، وغيرها من الطّاعات، فاستبان من هذا التّحليل مناسبة ذكر (العاكفين) في سورة البقرة، و(القائمين) في سورة الحجّ.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة.

خاتمة:

لقد تبيّن لنا ونحن ندرس قضيّة تعاور الكلمات في التعبير القرآني العديد من الفوائد والأحكام التي يمكن لنا أن نسجّلها في النقاط الآتية:

-السّياق له دور كبير في تعاور المفردات في القصص القرآني، فيستعمل الكلمة مناسبة مع سابقتها ولاحقتها، ومناسبة كذلك مع المقام الذي ترد فيه، فالمفردة القرآنية إذن مراعًى فيها الجانب التعبيري والجانب المقامي فهي في الذروة البلاغية.

-التعبير القرآني تعبير فنّي مقصود، حسب لكلّ كلمة فيه حسابها، بل لكلّ حرف، بل لكل

حركة، ومن ثمّ يكون القول بعدم وجود الترادف في القرآن هو القول الصحيح الذي نعوّل عليه.

-إنّ القرآن الكريم معجز، ووجه الإعجاز فيه كامن في نظمه، وطريقة تأليفه، ولهذا تحدى العرب أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو سورة مثله، وهذا ما يسمى عند علماء اللّغة بالإعجاز البياني.

وممّا أوصي به في ختام هذا البحث هو أنّ ما نقلت وذكرت إنّما هي مجرد استنباطات واجتهادات للعلماء، فإن كانت صوابا فذاك توفيق وفضل من الله، وإن كانت خطأ فذاك من طبيعة البشر، وكل بني آدم خطّاء، وختمت بهذا الكلام لأنّ الأمر في هذا البحث يتعلّق بالقرآن ونسبة المعنى إلى الله، والخطأ في هذا عظيم ولذلك اشتد خوف السّلف-رحمهم الله- في القول في تفسير القرآن، فقالوا:"احذروا التّفسير فإنّه الرواية عن الله".

قائمة المراجع:

1. الشّوكاني محمد بن علي،(2007) فتح القدير، دار المعرفة، بيروت.
2. الرّاغب الأصفهاني الحسين بن محمد، 2009، مفردات غريب القرآن، تح: صفوان عدنان، دار القلم، دمشق.
3. الألوسي، محمود شهاب الدين، (دت) روح المعاني، دار إحياء التراث العربي.
4. أبو حيّان محمد بن يوسف،(1993)تح: علي محمد معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت. البحر المحيط، ج1، ص 553.
5. فاضل السّامرائي، محاضرات بعنوان: لمسات بيانية، قناة الشارقة، 14-08-2009-، منشور على صفحة اليوتيوب عبر الرابط الآتي: https://www.youtube.com/watch?v=bVs6EJ7uTCQ&t=11s بتاريخ:02 فيفري2020م، على السّاعة10:09.
6. فاضل السّامرائي،(2002) على طريقة التّفسير البياني، جامعة الشارقة، الإمارات.
7. فاضل السّامرائي، (2006) بلاغة الكلمة في القرآن، شركة العاتك، القاهرة.
8. فاضل السّامرائي،(2009)، التعبير القرآني دار عمار، الأردن.
9. ابن كثير عماد الدين، (2013)تفسير القرآن العظيم ،تح: محمد بن الجميل، دار الإمام مالك، الجزائر.
10. مسلم أبو الحسين، 2010، صحيح مسلم، تح: محمد عبد الباقي، دار الرشيد، الجزائر.
11. ابن منظور جمال الدين،(دت) لسان العرب، تح:عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعرف مصر.